عِلم النفسِ الاجتماعي وَالعُلوم الإنسَانيَّة

1 ـ التمازج بين علم النفس وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي:

يعتقد الكثير أن علم النفس الاجتماعي هو العلم الذي يربط ما بين علم النفس وعلم الاجتماع ولو أن هذا الأول ظهر بعد تطور تاريخي للعلمين الأولين ويستعير منهما الكثير من النظريات والطرق والمفاهيم إلا أنه يتميز عنهما بمدخله لسلوك الإنسان ومنهجيته. لنرى أولاً ما هو ميدان علم النفس والاجتماع وكيف تطورا نحو اتجاهات تبين عدم نجاعة الفصل الاصطناعي بين الفرد والمجتمع عندما نريد دراسة موضوعية لخاصيات وتصرفات هذا أو ذاك.

1.1 ـ تدرج علم النفس إلى اعتبار المحيط:

لقد كان علم النفس في بدايته علم المتكلم (Psychologie en première personne)[1] يستوعب المعلومات من الاستبطان (Introspection) والتحليل الذاتي ثم تدرج إلى الطرق التجريبية وصار علم «الغائب» (Psychologie en 3ème personne) وفي الحالتين كان الاتجاه نحو دراسة الجواهر (essences)

(1) انظر: A.M. ROCHEBLAVE- SPENLE, **Psychologie sociale Clinique,** PUF, 1969.

التي تعتبر ككل ولم يكن علماء النفس مهتمين بدراسة العلاقات بين الذات وما يحيط بها فمنهم من يرى الفرد (Individu) كجملة من ردود الفعل اللاإرادية (Reflexes) (Pavlov, Donaldson) أو كجملة من الملكات (Goblot) أو الحالات الشعورية (Bergson, états de consience).

وفي مرحلة أخيرة وخلال النصف الأول من هذا القرن تطورت نظريات علم النفس إلى اتجاه أكثر شمولاً وأقل تفكيكاً في دراسة الشخصية وهنا تحتم اعتبار المحيط الخارجي لفهم هاته الشخصية فنرى السلوكية (Behaviorisme) تتنحى شيئاً فشيئاً عن دراسة ردود الفعل المنعزلة وتهتم أكثر بالردود المنظمة والجملية التي لا تخلو من تأثيرات المحيط كالعادات مثلاً (Watson, Tolman) ثم تبرز نظرية الأشكال (Psychologie de la forme Kohler, Koffka) التي تعتبر أن الوظائف السيكولوجية لا تنفصل عن علاقتها بالشخصية ككل ولا عن المجال (Champ) الذي تظهر فيه.

لذا أصبح من الواجب لا دراسة الفرد فحسب بل وكذلك اعتباره في محل علاقة مع محيطه من أشخاص ومجموعات وهذا التفتح لعلم النفس على الناحية الاجتماعية يعتبر من المؤشرات التي سبقت ظهور علم النفس الاجتماعي وسنرى فيما يلي كيف اعتمد هذا الأخير نظريات سيكولوجية ليثريها ثم لينطلق بصفة مستقلة.

2.1 ـ تدرج علم الاجتماع إلى اعتبار سيكولوجية الفرد:

لقد تطور علم الاجتماع تطوراً موازياً لعلم النفس إذ كان في بدايته مهتماً بالجوهر فركز البحث على المجموعة البشرية كذات مستقلة عن الأشخاص الذين يكونونها.

ودرس دوركايم (DURKHEIM) الفرنسي الضمير الجماعي Conscience collective والهياكل الاجتماعية Structures sociales وكيفية سيرها وكأنها تسير بصفة آلية بدون إرادة صانعي الفعل الاجتماعي (Les auteurs de l'action

(sociale وقد يبرر هذا الاتجاه الهدف الذي كان وراءه ألا وهو إبراز مدى ارتباط السلوك الإنساني بعوامل وظواهر اجتماعية لا قدرة لعلم النفس وحده أن يفسرها.

وسرعان ما تبين أنه من الصعب كذلك أن نفسر التطورات الاجتماعية بردها إلى الآلية السوسيولوجية وحدها وغض الطرف عن الإنسان الفرد الذي يرى فيبر Max WEBER الألماني أنه هو «الصانع والحاكم في الأوضاع» (Ouvrier et maître des situations) يرى WEBER مثلاً أن البيروقراطية نشأت في المجتمعات المصنعة كنتيجة البحث الإنساني على طرق ناجعة في التنظيم.

ولم يقتصر عالم اجتماعي آخر VAN WIESE على دراسة الهياكل والمؤسسات الاجتماعية بل اهتم خاصة بالعلاقات الاجتماعية التي تنشأ فيها.

وقد تبلور هذا الاتجاه عند علماء الاجتماع المعاصرين مع ازدياد الرغبة في الربط بين النظرية والواقع واعتماد الدراسات التطبيقية وأصبح تفتح علم الاجتماع على علم النفس شيئاً طبيعياً ساعد على نشأة ميدان علمي جديد ألا وهو علم النفس الاجتماعي.

3.1 ـ خاصيات علم النفس الاجتماعي:

قد يرى البعض أن علم النفس الاجتماعي ليس إلا خليطاً من بعض النظريات السيكولوجية والسوسيولوجية أو نقطة الالتقاء بين علم النفس وعلم الاجتماع وتأليفاً بينهما (Synthèse) وبالرغم من أن هذا التعريف ليس مقبولاً من طرف اختصاصيي ع.ن.أ. الحديثين فقد يوجد بعض العوامل التي تبرره.

(أ) كثير من الكتب الأساسية التي تعرف ب ع.ن.أ. أو جلها هي من إنتاج علماء النفس أو علماء اجتماع أو حتى علماء ينتمون إلى ميادين أخرى:

فنجد مثلاً كتاب «Handbook of social psychology» الذي ظهر في كامبردج Cambridge سنة 1954 وهو إنتاج مشترك بين علماء نفس مثل

ALLPORT و MURPHY وأنتروبولوجيين (Anthropologues) مثل KLUCHKHOHN وإحصائيين مثل MOSTELLER وعلماء اجتماع مثل LIP-SET, SEYMOUR, HOMANS كما نجد منتجات فردية لعلماء اجتماع مثال: (STOETZEL: la Psychologie sociale) أو علماء نفس مثال: (ASCH: social Psychology).

(ب) المواضيع المطروقة لا تكون في حد ذاتها نسقاً متكاملاً وقد تبدو متباعدة في أول وهلة فمن هاته المواضيع العلاقة بين الفرد والمجتمع وكيفية الاندماج والاتصال والزعامة والعلاقات الاجتماعية في الصناعة والاستهلاك والإشاعات والموضة والضحك وسلوك الجماهير إلى غير ذلك.

ـ علم النفس الاجتماعي يستعمل في دراساته نظريات يستعيرها على حد السواء من علم النفس وعلم الاجتماع مما يبعث على الاعتقاد أنه وسيلة ربط بينهما.

لكن لو وقفنا عند هذه الملاحظات لبقينا في مستوى النظرية السطحية ولما قدرنا على تبين مميزات هذا العلم التي تكون العمود الفقري الذي يربط بين كل هاته المواضيع وبين الاختصاصيين المختلفين الذين شاركوا في تقدمه. فما هي مميزات هذا العلم؟

1.3.1 ـ التفاعل Interaction:

لقد أصبح من الأمور التقليدية القول بأن علم النفس الاجتماعي يعتمد أساساً على هذا التصور Conception فهو «يتجاوز التنافس الباطل بين الفرد والجماعة (مع أولوية أحدهما)» كما قال ميزونوف Maisonneuve وذلك باعتبار أن سلوك الفرد لا ينتج عن دوافع نفسية خاصة ولا عن ضغط اجتماعي مسيطر ولكنه شديد التأثر بالوضع الاجتماعي الذي يوجد فيه. فالفرد يؤثر ويتأثر بسلوك الغير فهو إذن من العوامل الفعالة التي تحدد المجال الاجتماعي كما أن لهذا الأخير دوراً في تحديد السلوك.

بقي الآن التعريف بمفهوم **المجال الاجتماعي** (champ social). اهتم كثير من علماء النفس الاجتماعي بالمجموعات البشرية الصغيرة الحجم كمجال اجتماعي تحدث فيه التفاعلات بين الأفراد أو بين الفرد والمجموعات ونلاحظ أنه كثيراً ما يقود البحث إلى اعتبار المجموعات لا ككيان مغلق عن نفسه بل كنسق مفتوح (Système ouvert) يتفاعل مع المجتمع ككل. مثال: سلوك الفرد في العائلة يتأثر بمميزاته الخاصة وبطبيعة العائلة وكذلك بما كان لهذا الفرد من تجربة خارج العائلة في المدرسة أو في العمل أو في حلقة الأصدقاء أو حتى بما يسمعه أو يقرؤه عن طريق وسائل الإعلام.

وفي تحليله لتصور التفاعل يبين: MOSCOVICI[1] أنه يعني ارتباط حقيقي أو رمزي بين الأشخاص في علاقاتهم مع محيط مشترك سواء كان هذا المحيط مادياً أو اجتماعياً[2] فالشخص لا يتفاعل مباشرة مع الشيء ولكن يوجد بينه وبين الشيء وسيط: شخص آخر أو مجموعة أشخاص.

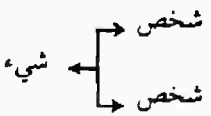

وبناء على هذه الملاحظات يتجه علم النفس الاجتماعي إلى نوعين من الدراسة:

- دراسة ميكانيزمات التفاعل أي آليتها من خلال التحولات السلوكية التي يتسبب فيها وجود علاقة معينة (مثلاً: حضور شخص، علاقة تبادل أو تبعية).

- اعتبار أن العلاقة الاجتماعية هي في حد ذاتها منبع لحركية وظواهر

---

(1) Cf. La Psychologie sociale, une discipline en mouvement, ed. Monton, 1970.

(2) Op. cit. P: 33... «Une perspective «sociale» que partagent à des dégrés divers plusieurs auteurs, représente un progrès certain dans la mesure où elle prend comme point focal l'unité globale constituée par l'interdépendance réelle ou symbolique, de plusieurs sujets dans leur rapport à un environnement commun, que celui-ci soit de nature physique ou sociale... la relation sujet-objet, est médiée par l'intervention d'un autre sujet d'un «Alter» et devient une relation complexe de sujet à sujet et sujets à objets».

نفسانية واجتماعية خاصة تخلق مجالاً (Champ) نفسياً اجتماعياً (انظر أعمال لوين LEWIN الخاصة بديناميكية الجماعات وتكوين المثل والنماذج).

2.3.1 ـ مناهج البحث:

يرى STOETZEL[1] أن من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور علم نفس اجتماعي مستقل هو استنباط منهجية فذة للبحث واستعمالها في الربع الثاني لهذا القرن خاصة أنه كان للباحثين الأولين الشجاعة الذهنية لاعتبار أن كل سلوك إنساني سواء كان فردياً أو جماعياً يمكن أن يكون محل بحث ميداني (Empirique) أو حتى محل تجربة مخبرية ومن هذه النظرة انطلقت وتعددت البحوث خاصة في أمريكا حيث استنبطت أهم وسائل وطرق البحث. وكان هدف الباحثين لا فقط اكتشاف ووصف الظواهر السلوكية بل وحتى المعالجة وحل الخلافات والتوترات الاجتماعية ولعل هذا الاتجاه الذي يربط بين النظرية والتطبيق هو الذي جعل رقعة المهتمين بهذا العلم تتسع وتشمل شيئاً فشيئاً الصناعيين والمربيين وحتى العسكريين. ولكن هل وصل هذا العلم إلى مستوى من العمق والدقة يجعل بإمكانه القدرة على تنبؤ السلوك البشري وتحويل اتجاهه كشأن العلوم الطبيعية في فهمها وسيطرتها على المادة؟

2 ـ النظرية في ميدان العلوم الإنسانية:

يعتمد علم النفس الاجتماعي على نظريات والنظريات بصفة عامة ما هي كما يقول Krauss و Deutsch[2] إلا وسائل فكرية تساعد على تنظيم المعطيات بصفة تمكن من القيام باستنتاجات أو التعبير عن ارتباطات منطقية تشد بعض المعطيات إلى أخرى.

وتستعمل العلوم الصحيحة كالفيزيا والعلوم الطبيعية مثلاً الوسائل الرياضية لتجسيد نظرياتها ووضع هياكلها باستعمال صيغ (Formules) كما تقرن هاته النظريات بقواعد تطبيقية تمكن من اختبارها والبرهان على صحتها

(1) Jean STOETZEL, la psychologie sociale, Flammation, 1963.

(2) M. DEUTSCH & R.M. KRAUSS, Theories in Social Psychology, Basic Books inc Publishers, 1965.

وكذلك الربط بينها والمعطيات الملموسة الناتجة عن الملاحظة والتجربة وللرياضيات مزية علمية إذ هي تمثل نسقاً استنتاجياً (Système déductif) يمكن من استخراج استنتاجات حسب قواعد مضبوطة ومعروفة يمكن لأي ما أن يحقق صحتها ويمكن حتى استخراجها بصفة آلية بواسطة الأدمغة الإلكترونية ولعل هذا ما يفسر بقاء التطورات الأساسية لهاته العلوم على مر الزمن. وتحاول بعض العلوم الإنسانية خاصة منها علم الاقتصاد أن تتوصل إلى مستوى العلوم الصحيحة وتستعمل أكثر قدر ممكن للأداة الرياضية في إنشاء وإثراء نظرياتها.

أما فيما يخص نظريات علم النفس الاجتماعي فهي لا تستعمل حتمياً الرياضيات المجردة بل تكتفي بالتركيز على الطرق الاستنتاجية الموجودة في قواعد اللغة والكلام العادي ولهذا لم تكن عامة واضحة ودقيقة تماماً وبقيت محلاً دائماً للريب إذ تحتوي على مفاهيم واعتبارات ضمنية (Implicite) غير مصرح بها عوضاً عن معايير شكلية (Critères formels) ولكن للكلام العادي مزية بالنسبة لعلم جديد إذ زيادة على المنطق الرشيد (Rationalité) الذي يحتويه فهو مرتبط مباشرة بالواقع، ولدن، قابل للتشكل يمكن بواسطته وبصفة دقيقة نسبياً التعبير به عن الظروف المختلفة. وكلما تقدمت المعرفة كلما وقع التحول شيئاً فشيئاً من التفكير الضمني إلى التفكير الصريح، من المفاهيم المبهمة إلى المفاهيم الأكثر وضوحاً مع الاحتفاظ بالصلة مع مجال أوسع فأوسع من الفهم البديهي للواقع. وتتطور النظريات باستنباط مفاهيم جديدة وتركيبات نظرية جديدة. (مثال تطور علم السلوكية).

3 ـ بعض النظريات الأساسية التي يعتمدها علم النفس الاجتماعي:

إن النظريات التي تكون حصيلة بحث ودراسات ع. ن. إ. تعتمد في الحقيقة بصفة ضمنية أو مصرح بها بعض النظريات السيكولوجية أو الاجتماعية الأساسية. ومن أهم هاته النظريات التي ساعدت على خلق نظريات نفسية اجتماعية متميزة (Originales) نذكر ثلاثة: السلوكية، الأشكال،

البنيوية ـ الوظيفية (Structuro-fonctionnalisme).

1.3 ـ السلوكيـة:

لقـد نشأت هـذه النظريـة في أوائـل القـرن ومن أهم المفكـرين الذين ينتمون لهذه المدرسة واتسون WATSON وتتميز بالعناصر التالية:

(أ) إن ميدان علم النفس هو السلوك أي ما يقال أو يفعل وما يمكن أن يشاهد بصفة مباشرة أو غير مباشرة من إجابة على المثيرات.

(ب) السلوك البشري في أجزائه يأخذ صورة الإجابة على المثير:

مثيـر ← إجابـة ويمكن أن يكون المثير متأتياً من المحيط الخارجي أو نـاتجاً عن تغييـر في الحالـة الفيزيـولوجيـة للشخص (كإفـراز مواد كيميـائية أو حدوث رغبة فيزيولوجية. .).

(ت) إن نـوعية الإجـابات على المثيـرات تتحدد بـالتكيف البشري مـع المحيط (Adaptation).

(ث) مجمـوع الإجـابـات على المثيـرات المختلفـة ليست مستقلة عن بعضها البعض ولكن تكون وحدة معبرة على الشخص ككل.

ومن الافتراضات الضمنية لهاته النظرة قبول مبدأ العلاقة السببيـة (Rela-tion de causalité) في تفسيـر السلوك ومبدأ الآليـة (Mécanique) التي تربط بين المثير والإجابة وكذلك مبدأ المشاهدة الامبيـرقية (Observation empirique) في التحليل، ولعل هذه الافتراضات هي التي اعتمدت كأساس لنقد هاته النظرية من طرف الإشكاليين (Gestalistes) الذين يرون أنه لا يمكن الاستغناء عن دراسة التجربة الشخصية (L'expérience du je).

2.3 ـ نظرية الأشكال (Théorie de la forme):

نشأت هذه النظرية في ألمانيا حوالي سنة 1930 وتعتمد التجـربة اليـومية

البسيطة وكيفية حدوثها بدون أي فروض فلسفية مسبقة.

ويلاحظ مؤسسو المدرسة الإشكالية ومن أهمهم كوهلار (KOHLER, 1929) وكوفكا (KOFFKA, 1935) أن التجربة مهما تكن جزئية فهي منظمة ومتصلة بالكل. وبناء على هذه الملاحظة اعتمد الاشكاليون هذين المبدأين في دراساتهم.

(أ) إن الظواهر السلوكية أو النفسانية أو غيرها تكون مرتبطة وفي الآن نفسه بعدة عوامل متشابكة تكون في مجموعها مجالاً منظماً تحدث فيه الظاهرة فالسلوك لا ينفصل عن الموقف الذي يحدث فيه مثله مثل الحرف في الكلمة لا يدرك لذاته ولكن كأداة لتكوين الكلمة لا ينفصل عنها.

(ب) أحياناً يكون المجال النفسي غير منظم وغير متسق فتتدخل الوظائف السيكولوجية لإيجاد توازن واتساق لهذا المجال يقبله العقل. فمثلاً لما نشاهد سلوكاً عند أحد الأفراد يخالف نوعاً ما الفكرة التي نحملها عن الجماعة التي ينتمي إليها ـ وفي هذا الاختلاف يكمن الخلل في نظام المجال الإدراكي (Le champ perceptif). فإما أن نغض النظر عن هذا التباين ونقول عن هذا الشخص إنه بكل صفة مثل الذين ينتسب إليهم. أو نبالغ فيه ونقول إنه حقاً ليس منهم.

النظرية الإشكالية ترتكز مثل السلوكية على المشاهدة الإمبيرقية ولكنها تمتاز بإعطاء الأولوية في الدرس للشكل ككل قبل الأجزاء المكونة له، وباعتبار أن للشكل توازناً واتساقاً إما أن يكون طبيعياً في الأشكال البسيطة وإما أن يكون ناتجاً عن وظائف نفسانية في الأشكال المعقدة. ولعل ما يعاب على هاته النظرية عدم قدرتها على تفسير دقيق لكيفية وآليات الوظائف النفسانية التي تعطي توازناً للمجال الإدراكي.

3.3 ـ النظرية البنيوية ـ الوظيفية (Le structuro-fonctionnalisme):

يقول دافيد سيلفرمان (DAVID SILVERMAN 1970) لقد نشأت النظرية

الوظيفية بناء على السؤال التالي: كيف يمكن للمجتمع أن يعيش ويستمر رغم تغير الأفراد وكيف يمكن لأناس ذوي شخصيات مختلفة أن يتعايشوا ويبنوا هيكلاً من العلاقات أكثر أو أقل استمرارية؟

وقد فسرت هذه النظرية التوازن (سواء كان حركياً أم مستقراً) باعتبار أن الجسم الاجتماعي شبيه بكل الأجسام الطبيعية إذ هو نسق متكون من أعضاء ومن عناصر متماسكة لكل عنصر منها وظيفة مطالب بها من طرف العناصر الأخرى ومن طرف النسق ككل لتحقيق التوازن والتكامل داخل النسق. والسؤال المطروح أصبح يهم حدود النسق الاجتماعي والوظائف الخاصة بكل عنصر من عناصره والأسباب التي تجعل هذا النسق عرضة لاختلال توازنه وسيره بصفة غير متناسقة وحدوث تغييرات وصراعات داخله.

(أ) التعريف بالنسق الاجتماعي:

إنه المجتمع بمعناه السياسي والتاريخي والجغرافي ليس مستقلاً ولا منعزلاً عن المجتمعات الأخرى بل له تفاعلات معها وقد تؤثر هذه التفاعلات في توازن وسير نسق اجتماعي معين، أما داخل هذا النسق فهناك بنى وتنظيمات اجتماعية معقدة تمثل في حد ذاتها أنساقاً يعبر عنها بالأنساق الفرعية (Sous-système) لها علاقات ببعضها البعض كما أن لها علاقة بالمجتمع ككل.

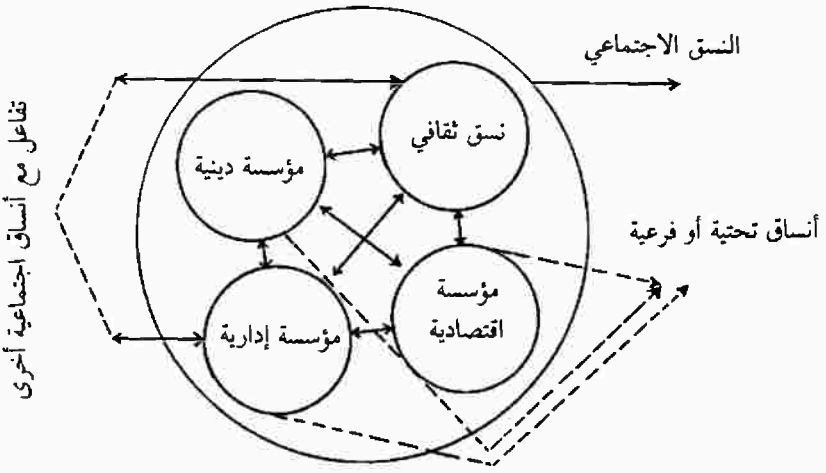

(ب) الوظائـف:

هي الأهـداف المرسـومـة لكـل عنصـر من عنـاصـر النسق الاجتمـاعي (الأنساق الفرعية) ولكل عنصر من عناصر أنساقه الفرعية (الأفراد والجماعات) ويرى مورتون (R.K. MERTON 1953) أن هناك وظائف ظاهرية وأخرى باطنيـة وكذلك نقائض الوظائف (Dysfonctions) التي لها نفس الأهميـة التي للوظائف (فالصراع مثلاً يبدو كظاهرة سلبية ولكن له وظائف هامـة كالتـداول على النفوذ والسلطة أو القضاء على أوضاع خطيرة على حياة المجتمع...).

وفي رأي (T. PARSONS 1971) فإن من أهم وظائف النسق الاجتمـاعي التكـامل (Intégration) ويعني بـذلك عمليـة التنسيق بين عنـاصـر مختلفـة من أشخاص وجماعات لتحقيق أهدافه المختلفة.

استعمل بعض علماء النفس الاجتماعي نظرية التكامل هذه في تحليلهم للسلوك داخل الجماعات الصغيرة.

من الاعتبارات الضمنية التي تحتوي عليها النظرية البنيوية الوظيفية.

(أ) اعتبـار أن النتـائـج أهم من الأسبـاب عنـد الـدراسـة فـالمهم هي الوظائف وكيفية سيرها وموافقتها وتكاملها مع النظام الاجتماعي.

(ب) اعتبـار أن للنسق الاجتمـاعي تـوازنـاً لا بـد منـه وحتى التغييـرات والصـراعات التي تنتـج داخل المجتمعـات فتفسر بـالحـاجـة إلى التكيف مـع محيط متغير.

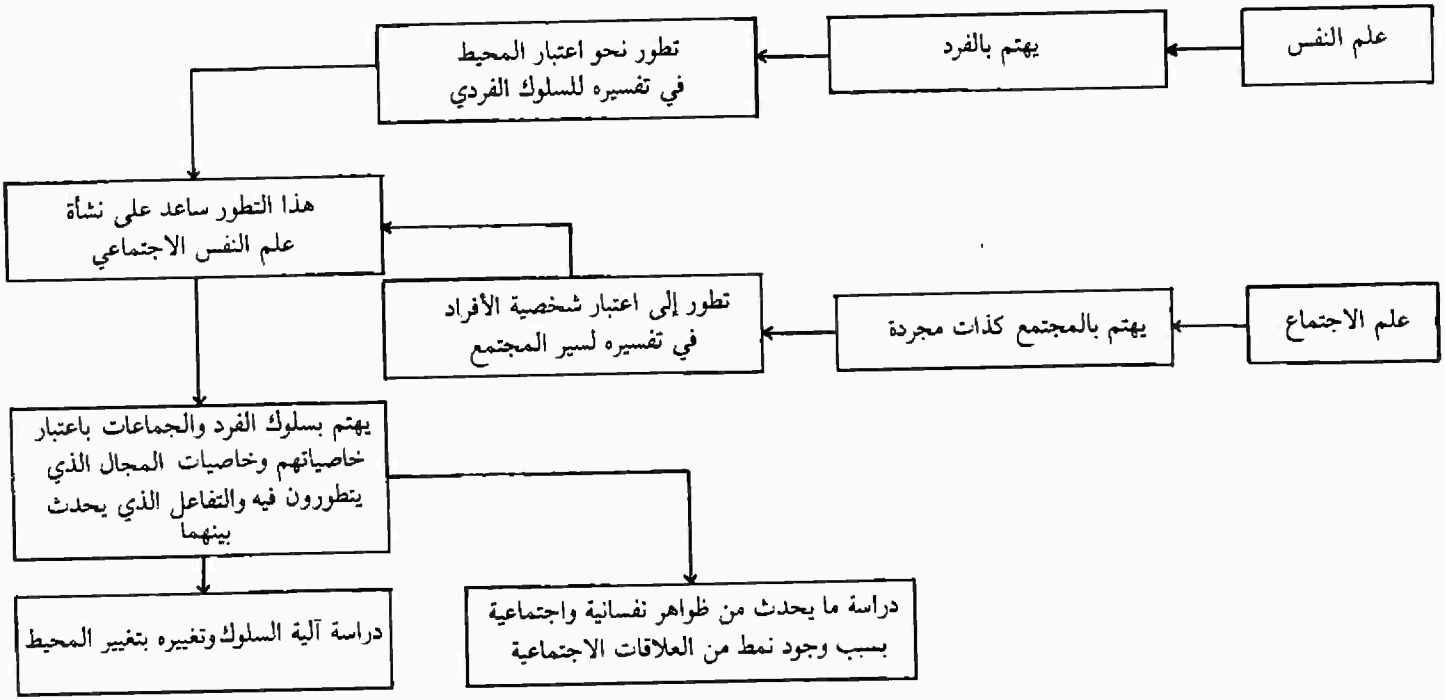
علم النفس
يهتم بالفرد
تطور نحو اعتبار المحيط
في تفسيره للسلوك الفردي
هذا التطور ساعد على نشأة
علم النفس الاجتماعي
علم الاجتماع
يهتم بالمجتمع كذات مجردة
تطور إلى اعتبار شخصية الأفراد
في تفسيره لسير المجتمع
يهتم بسلوك الفرد والجماعات باعتبار
خاصياتهم وخاصيات المجال الذي
يتطورون فيه والتفاعل الذي يحدث
بينهما
دراسة ما يحدث من ظواهر نفسانية واجتماعية
بسبب وجود نمط من العلاقات الاجتماعية
دراسة آلية السلوك وتغييره بتغيير المحيط